جامعة محمد لمين دباغين – سطيف
قسم التاريخ والآثار
الأستاذ: لخضر بوطبة

السنة الثانية: ل. م. د
السنة الجامعية:2021-2022
السداسي الأول

محاضرات في مقياس: تاريخ الجزائر الثقافي الحديث والمعاصر

الحياة الثقافية في الجزائر قبل العهد العثماني:

لا يمكن الحديث عن الحياة الثقافية في الجزائر قبل العهد العثماني دون التطرق بإيجاز إلى الحالة العامة التي كانت سائدة في هذا العصر أي القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

الحالة العامة في الجزائر خلال القرن الخامس عشر الميلادي (9ه):

يمثل هذا القرن من حيث الإنتاج الفكري حلقة وصل بين عهدين مختلفين: عهد الإمارات المحلية الضعيفة المتناحرة (الحفصيين والزيانيين والقبائل والأعراش الكثيرة العدد) وعهد الدولة المركزية القوية (الدولة العثمانية).

وقد تميز القرن ال15 على العموم بالاضطرابات السياسية وعدم الاستقرار بالإضافة إلى تدهور الوضع الأمني كنتيجة لذلك والصراع داخل الأسر الحاكمة وكذا انتشار اللصوصية وغياب الأمن وكثرة الكوارث الطبيعية من جفاف ومجاعات وأوبئة كل ذلك أثر بالسلب على الإنتاج الثقافي، بسبب عدم استقرار العلماء وهجرتهم.

وقد زاد من الأمر تعقيدا وجود الخطر الخارجي الداهم المتمثل في البرتغال والإسبان الطامعين في التوسع جنوب البحر المتوسط في ظل حالة الضعف والتخلف والتمزق التي كانت عليها الدويلات الثلاث المتناحرة، وزادت مأساة الأندلسيين من الأوضاع سوءا.

إن تأثير الوضع السياسي على الحياة الثقافية في الجزائر يبدو جليا في هجرة العلماء الجزائريين مشرقا ومغربا هروبا من نار الفتن، ونذكر أمثلة على ذلك هجرة أحمد بن يحي الونشريسي إلى فاس، ومحمد بن عبد الكريم المغيلي الذي هاجر من تلمسان إلى السودان وهناك من هاجروا إلى المشرق وتوفوا هناك أمثال أبي الفضل محمد المشدالي وأحمد أبو عصيدة البجائي وأحمد بن يونس القسنطيني وابن سالم الوشتاتي القسنطيني وأبي زيان ناصر الموزني وغيرهم. وفي حين فضل البعض الانزواء والتفرغ إلى حياة التصوف والزهد كما عل عبد الرحمان الثعالبي وتلميذه أحمد بن عبد الله الزواوي. وقد لعب العلماء الأندلسيون الذين هاجروا إلى المغرب الأوسط دورا لا يستهان به في دفع الحركة التعليمية والثقافية، بما أدخلوه من مناهج وطرق جديدة لم يألفها علماء الجزائر حينئذ.

ومن ميزات العصر أن الكاتب كان يجمع بين علوم شتى في تأليف واحد فتجده يمزج بين التاريخ والأدب والشعر واستمر هذا التقليد طوال الفترة العثمانية ومن الأمثلة على ذلك نأخذ المؤلف محمد بن

ميمون الجزائري في كتابه التحفة المرضية في الدولة البكداشية الذي هو عبارة عن وصف للانتصار الذي حققه الداي محمد بكداش على الإسبان في وهران ومدح لهذا الداي على هذا الفتح العظيم المتمثل في تخليص هذه المدينة بعد احتلال دام قرابة الثلاثة قرون (1509-1708) حيث جاء الكتاب عبارة عن قصائد وأراجيز من الشعر إذ كانت المعارك والأحداث العسكرية والسياسية الكبرى مصدر إلهام للكتاب والشعراء والأدباء والفقهاء الذين كانوا يسجلون حضورهم بقوة في مثل هذه المناسبات كتعبير عن الفرحة والسرور والتأييد وتقديم الشكر ومدح والثناء للفاعلين.

وعلى الرغم من الحالة السياسية السابقة الذكر إلا أن مدن عديدة اشتهرت بالعلم وبعلمائها وظهرت الأسر العلمية في كل مدينة ففي تلمسان مثلا اشتهرت عائلة العقباني والمرازقة وابن زاكور والمقري، وابن باديس والقنفذ في قسنطينة، وأسرة المنجلاتي والمشدالي في بجاية ونواحيها، وفي بسكرة اشتهرت عائلة موزني. وإذا إنتاج القرن الخامس عشر غزيرا في ميدان العلوم الأدبية والشرعية فإنه لا يخلو من عيوب (استمرت هذه العيوب خلال العهد العثماني) وتتمثل في الاعتماد على النقل والرواية دون نقد أو اجتهاد، مما ساعد على انتشار الجمود والتخلف الفكري.

ومن أشهر العلماء الذين أنجبتهم الجزائر في هذه الفترة رغم ما تميزت به من مشكلات نذكر عبد الرحمان الثعالبي في مدينة الجزائر، محمد التواتي في بجاية، محمد بن يوسف الملياني، أبو الفضل محمد المشدالي البجائي، أحمد المقري أستاذ ابن خلدون صاحب نفح الطيب في غضن الأندلس الرطيب، و أحمد أبوعصيدة البجائي، وأحمد بن يحي الونشريسي وأحمد بن زكري وأحمد بن يونس القسنطيني، وأبن صعد التلمساني، وابن موزوني البسكري، ولحسن أبركان ومحمد بن عبد الكريم المغيلي وابن القنفذ القسنطيني غيرهم.

ومن العادات السلبية التي ابتلى الله بها العلماء في الجزائر على مر العصور حسب ما أورد أبو القاسم سعد الله أن العامة لا يقدرونهم حق قدرهم ولا يعترفون لهم بحرمة أو عهد ولعلها من الأسباب التي دفعت بالكثير منهم إلى تفضيل الهجرة نحو الخارج، فقد لاحظ أحد العلماء وهو محمد السنوسي أن المشارقة أكثر اعتناء واحتراما لعلمائهم من المغاربة ومنهم الجزائريين

<u>الإنتاج الفكري:</u>

ومن أهم التآليف التي ظهرت خلال هذا القرن وأصبحت مرجعا للطلبة والدارسين في القرون اللاحقة في التاريخ والتراجم والسير نذكر:

"الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" الذي ألفه سنة 809هـ، و"أنس الفقير وعز الحقير"، و"كتاب الوفيات "، و"تحفة الوارد في النسب من قبل الوالد"، و"طبقات علماء قسنطينة"، و"المسافة في الرحلة العبدرية" لابن القنفذ القسنطيني. و"بغية الرواد في ملوك بني عبد الواد" ليحي بن خلدون شقيق عبد الرحمان بن خلدون. و"نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان ومن ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان" للعالم محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي الذي يعد من أشهر العلماء في

هذا القرن فقد كان له قدرة عجيبة على الحفظ فبرع في علوم الحديث والآداب والتراجم والتاريخ ومن أبرز ما كتب في التاريخ،كتاب أهداه للملك الزياني أبو حمو موسى
وكتاب"راح الأرواح فيما قال المولى أبو حمو من الشعر وقيل فيه من الأمداح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح".

ومن مؤلفات الثعالبي: "الأنوار في آيات النبي المختار"، وهو في السيرة النبوية. و"جامع الهمم في أخبار الأمم"، وهو في التراجم والسير.

وهناك مؤرخ آخر يدعى أبو زيان ناصر بن مزني البسكري لو قدر له الله لكان منافسا لابن خلدون في مقدمته لكنه توفي قبل أن يكمل الكتاب الذي كان بصدد تأليفه
وألف ابن صعد التلمساني كتاب:"النجم الثاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب" الذي جاء في موضوع التصوف ومدح مشايخه وإبراز مناقبهم، وابن مرزوق تلميذ ابن خلدون وكان عبد الرحمان الثعالبي أحد تلامذته.

وألف محمد بن مرزوق كتاب حول الأمير أبي الحسن المريني سماه:"المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن" وهو يندرج في فن السير والتراجم.
وألف عبد الرحمان الوغليسي كتاب"الوغليسية" في التصوف والتي ظلت موضع دراسة واهتمام اللاحقين لفترة طويلة من الزمن.
وألف عمر بن أحمد الجزائري الراشدي كتاب عنونه بـ :"ابتسام العروس في التعريف بالشيخ أحمد بن عروس"

وقد أخذت كتب التصوف والتراجم والمناقب حصة الأسد من تآليف علماء القرن التاسع الهجري (15م) ومن بين الذين كتبوا في التراجم والمناقب محمد بن عمر بن إبراهيم الملالي التلمساني الذي كتب في الشيخ السنوسي "االمواهب القدسية في المناقب السنوسية"
وألف ويحي المازوني: "الدرر المكنونة في نوازل مازونة"

وألف أحمد الونشريسي: "المعيار المعرب في ذكر تاريخ إفريقيا والأندلس والمغرب"، الذي فاقت شهرته حدود الوطن واشتهر في وهران محمد الهواري وتلميذه إبراهيم التازي.

<u>الأدب والشعر:</u>

غلب على الشعر مدح الأمراء والمديح النبوي ومدح المتصوفة وكان هناك شعراء البلاط الحفصي في كل من قسنطينة وبجاية، والبلاط الزياني في تلمسان، ولكن لم يبرز في هذا القرن شعراء فطاحل كما برز في القرون اللاحقة، فنذكر على سبيل المثال محمد بن عبد الرحمان الحوضي وأحمد بن محمد الخلوف فالشعر كان يدخل في باب الشعر الديني الذي يرتكز على المديح النبوي ومدح الصحابة والعلماء والأولياء والصلحاء، فقد جاء خاليا من الخيال ومن التعابير الإنسانية والمشاعر الحساسة كالتغني بجمال المرأة والطبيعة أو الغزل وما إلى ذلك.

وأما النثر فكان عبارة عن رسائل إخوانية وإنشاءات سلطانية وإجازات العلماء حيث كانوا يكثرون من السجع والمحسنات البديعية الأخرى.

وكثر التأليف في فقه النوازل والنوازل في اللغة : مفردها نازلة، والنازلة : هي المصيبة الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس وقيل : النوازل من النزول وهو الحلول، يقال: نزل بهم أمر، ومن أمثلة هذه النّوازل : الحرب ، الوباء ، القحط ، الأمطار ، السيول ، الفتن ، وما شابه ذلك.

وأما اصطلاحاً فلم يتطرق العلماء السابقون إلى تعريف "النازلة" وإعطائها وصفاً دقيقاً، بل تمّ ذكرها بدون تفصيل، أما بالنسبة للعلماء المتأخرين، فقد عرّف العلامة ابن عابدين النوازل بأنها : "الفتاوى والواقعات، وهي مسائل استنبطها المجتهدون المتأخرون لما سئلوا عن ذلك، ولم يجدوا فيها رواية عن أهل المذهب المتقدّمين".

وعرّفها من العلماء المعاصرين الدكتور وهبة الزحيلي: بأنها : "المسائل أو المستجدّات الطّارئة على المجتمع بسبب توسع الأعمال وتعقد المعاملات، والتي لا يوجد نص تشريعي مباشر، أو اجتهاد فقهي سابق ينطبق عليها. وصورها متعددة ومتجددة، ومختلفة بين البلدان أو الأقاليم، لاختلاف العادات والأعراف المحلية".

وعرفت "النازلة" في "معجم لغة الفقهاء" : المصيبة ليست بفعل فاعل، وهي الحادثة التي تحتاج لحكم شرعي.

وذكر الدكتور عبد الناصر أبو البصل أن كلمة النوازل تطلق بوجه عام على المسائل والوقائع التي تستدعي حكماً شرعياً، والنوازل بهذا المعنى تشمل جميع الحوادث التي تحتاج لفتوى تبينها سواء أكانت هذه الحوادث متكررة أم نادرة الحدوث، وسواء أكانت قديمة أم مستجدة.

وقد ينصرف الذهن عند إطلاق مصطلح النازلة إلى حادثة مستجدّة لم تعرف من قبل، ولم يتطرّق إليها الفقهاء بأي شكل من الأشكال، وتمثّل الأحداث الحيّة التي يعيشها الناس. وهذا النوع من النوازل يختلف عن الافتراضات النظرية التي لم تقع، ولكن الفقهاء تحدّثوا عنها وأفتوا فيها على سبيل الافتراض، وهذا ما يميّز مدرسة أهل الرأي بزعامة الإمام أبي حنيفة النعمان، فهي تهتم ببحث الاحتمالات، بخلاف المدرسة الأخرى بزعامة الإمام مالك والتي تهتم ببحث الحوادث والوقائع المستجدة النازلة في وقتها، لا قبل وقوعها كما هو حال المدرسة الأولى.[1]

---

[1] انظر: لسان العرب لابن منظور ، 238/14 – المصباح المنير للفيومي ، 825/2 – مجمل اللغة لابن زكريا ، 864/3 – مختار الصحاح للرازي ، ص335– المطلع على أبواب المقنع لأبي الفتح البعلي الحنبلي ، ص95 – المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، 951/2- أساس البلاغة للزمخشري ، ص452 – معجم متن اللغة لأحمد رضا ، 5/ 442 – معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، 417/5 - تهذيب اللغة للأزهري ، 13/ 211

والنازلة هي حادثة تقع فجأة وتحتاج إلى حكم شرعي استعجالي من طرف طبقة الفقهاء والمفتيون فلا ينبغي الانتظار، وكانت تحدث في المعاملات كالزواج والطلاق والمهور وأنواع البيوع والمنازعات وغيرها مما يستلزم حلولا سريعة.

وكانت النوازل التي كان ينظر فيها الفقهاء والعلماء تدور حول اللصوصية والظلم والغصب وتهريب السلاح والمصادمات الجماعية والأوبئة والمجاعات مما كان يدفع بالناس إلى مغادرة منازلهم.

والظاهر أن غياب السلطة وضعف قبضتها على السكان جعل العامة يلتفون حول العلماء والمرابطين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن الأرض والعرض وتصدوا للعدو الإسباني فرسالة الثعالبي إلى صديقه محمد التواتي في بجاية يحذره من غزو مسيحي وشيك على بجاية يدل على درايته ووعيه التام بالخطر الأجنبي الذي كان يحدق بالبلاد في ظل ضعف السلطة وعجزها عن حماية السكان.

وكان التعليم منتشرا في المدارس والمساجد والزوايا، وقد لعبت الهجرة الأندلسية دورا لا يستهان به في الجزائر خلال القرن التاسع لا سيما بعد سقوط الأندلس سنة 1492م في مجالات عديدة منها على الخصوص المجال الفكري والعلمي، وكانت قبل ذلك حواضر الجزائرية كتلمسان وبجاية وقسنطينة مناطق عبور للعلماء والفقهاء الأندلسيين

ومن ميزات هذا القرن ظهور ظاهرة التصوف العملي وازدياد نشاطه بسبب ضعف السلطة والخطر الخارجي على الرغم من أن التصوف كظاهرة دينية كان معروفا لدى السكان منذ عهد الموحدين الذين كانوا كمتأثرين بتصوف أبو حامد الغزالي، وانطلاقا من هذا القرن غالى المتصوفون في ممارسة بعض الطقوس كالالتفاف حول الأضرحة وإقامة الحضرة والأوراد، وقد لقي التصوف التشجيع والدعم من طرف السلطة العثمانية بداية من ق 16 فازداد انتشارا.

وقد ساهمت الزوايا في انحطاط المستوى الفكري حيث التف الطلبة بشيخ الزاوية وانفضوا عن العلماء مما جعل العلماء يلجأون إلى أسلوب التبسيط والابتعاد قدر الإمكان عن التعقيد في حل المسائل حتى لا يهرب الطلبة إلى الزوايا التي أصبحت تنافس المساجد والمدارس والمعاهد في المدينة.

ومن أبرز العلماء المتصوفين نذكر عبد الرحمان الثعالبي ومحمد بن يوسف السنوسي اللذان تمكنا من الجمع بين العلم والتصوف لكنها ركزا في تآليفهما على الحياة الآخرة دون الاهتمام بحياة الإنسان ومحاولة تطوير الحياة الفكرية وتشجيع العقل على الخرافة فغلب على كليهما حياة الزهد والتقشف والابتعاد عن الحياة، فلم يصرفا نظرهما في الانتقاد الوضع الراهن والعمل على إصلاح الأوضاع الاجتماعية للسكان والسياسية وغيرها من أمور الدنيا وأحوال المجتمع فقد كتب السنوسي ينصح معاصريه يقول:"إن الواجب فيه قطعا لمن أراد النجاة، بع تحصيله ما يلزم من العلم، أن يعتزل

الناس جملة ويكون جليس بيته ويبكي على نفسه ويدعو دعاء الغريق، لعل الله سبحانه أن يخرق له العادة بفصله عن هذه الفتن المتراكمة في نفسه ودينه إلى أن يرتحل من هذه الدنيا بموته"[1]

وتشير المصادر إلى أن الحياة الثقافية في الجزائر قبل إلحاقها بالدولة العثمانية كانت مزدهرة ونشطة، وكانت مدن تلمسان الزيانية وبجاية وقسنطينة الحفصيتين، حواضر للعلم ومراكز كبرى الثقافة كانت قبلة للعلماء والطلاب من داخل الوطن وخارجه.

ولا شك أن للروابط الثقافية بين الجزائر وبلدان المشرق والمغرب والأندلس دور كبير في الازدهار العلمي الذي عرفته تلك الحواضر، فهجرة العلماء لم تكن تعترف بالحدود السياسية، كما أن الحكام في ذلك العصر لم يكونوا يمنعون العلماء من التواصل فيما بينهم، وكانوا حريصين على تقريب العلماء والمثقفين منهم بغية الاستفادة من نصائحهم وتوجيهاتهم من جهة، وتشجيع الحركة العلمية وتشييد المؤسسات التعليمية والمراكز التثقيفية والإنفاق عليها من جهة أخرى.

فتلمسان في أواخر العهد الزياني كانت قبلة للعلماء والطلبة من داخل الوطن وخارجه، حيث ورثت العديد من المدارس والجوامع والمساجد والمعاهد التي شيدت في فترات سابقة نذكر منها على سبيل المثال:

الجامع الأعظم الذي بناه المرابطون سنة530 هـ/ 1136م، أشتهر بتدريس مختلف فنون العصر وعلومه، و كان يضاهي جامع القرويين بفاس، وجامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة.

ومسجد سيدي أبي الحسن وأسسه السلطان أبو سعيد عثمان سنة 696 هـ/ 1297، وكان هذا المسجد تحفة معمارية فنية رائعة ومركز علمي تخرج منه العديد من العلماء والفقهاء.

وتعتبر المدارس من أهم المراكز التعليمية والثقافية التي أولى لها ملوك بني زيان العناية والاهتمام من حيث التشييد والتشجيع والتجديد والترميم والإنفاق، وكان بتلمسان أكثر من خمسة مدارس وستين مسجدا ومن أشهر المدارس وأقدمها نذكر:

المدرسة التاشفينية: التي تم بناءها في حوالي سنة 765هـ/ 1364م، على يد عبد الرحمن أبو تاشفين (718هـ-777هـ/1381-1375م) بجانب الجامع الأعظم، وعين لها من كبار المدرسين العلماء من أمثال أبي موسى المشدالي، وكانت هذه المدرسة تحفة فنية رائعة، وقد وصفها أحمد المقري بأنها من بدائع الدنيا ، ولكن يد التخريب والتهديم طالتها إبان الفترة الاستعمارية حيث تم تهديمها دون مراعاة ما تمثله من جوانب فنية وحضارية، وبنيت مكانها دار البلدية، ثم نقلت بعض تحفها وزخارفها إلى متحف تلمسان، ثم إلى متحف كلوني في باريس.

مدرسة أبي الحسن المريني التي بناها السلطان أبو الحسن المريني في منطقة تسمى العباد سنة 748هـ/ 1348م، وذلك أيام استيلاء المرينيين على المغرب الأوسط.

المكتبات:

[1] ابن مريم التلمساني. **البستان فيمن عرف من الأولياء بتلمسان،** نقلا عن أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص50.

وكانت الكتب متعددة المصادر فمنها ما تم استقدامه من الأندلس، ومنها ما جُلب من اسطنبول والشام والحجاز، ومنها ما انتقل إلى الجزائر من تونس والمغرب، وكانت هذه الكتب تُجلب عن طريق العلماء الذين كانوا يؤدون فريضة الحج، وكذا الطلبة، وكان بعض علماء المغرب الأقصى على سبيل المثال كما يذكر أبو القاسم سعد الله يتركون كتبهم في الجزائر أثناء مرورهم بها في طريقهم إلى الحج، فيقوم العلماء الجزائريون بالنسخ عنها، ويبدو أنه كان يتم تبادل الكتب بين العلماء.

وقد أثريت المكتبات العامة والخاصة بالكتب المتنوعة خاصة الدينية منها عن طريق التأليف والشراء والنسخ.

وقد تعرضت المكتبات للضياع والتلف بسبب الحروب والأوبئة والفتن الداخلية، بالإضافة إلى تعرض بعضها للنهب بسبب إهمال القائمين عليها، ولعل أكبر محنة تعرضت لها المكتبات الجزائرية هو الاحتلال الفرنسي الذي تسبب في إتلاف وضياع الآلاف من الكتب والمخطوطات والوثائق ومن أبرز المكتبات التي تعرضت للضياع نذكر مكتبة الأمير عبد القادر ومكتبة الشيخ حمودة الفكون وباشتارزي في قسنطينة وغيرها.

وقد لعبت المكتبات العامة والخاصة دورها في ازدهار الحياة العلمية حيث كان العلماء والطلبة والحكام حرصين على اقتناء الكتب والمخطوطات والبحث عن النادر منها ووضعها في مكتبات للاستفادة منها، والنهل من علومها ومعارفها، إذ لا يمكن للثقافة أو للعلم أن ينمو ويزدهر دون مكتبات. فالسلطان أبا حمو موسى أسس خزانة وسع فيها على الطلبة والراغبين في العلم، وهذه الخزانة امتدت آثارها إلى القرن التاسع الهجري (15م).

كما كانت الزوايا تقوم بدورها في التعليم، حيث كان يؤمها الطلبة قبل التحاقهم بالمدارس والمعاهد، وقد أنتجت تلمسان في العهد الزياني عدد كبير من العلماء في مختلف العلوم والفنون، لا سيما خلال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، الذي يبدو أن عامل الاستقرار السياسي والاجتماعي لعب دوره في غزارة الإنتاج العلمي في هذا القرن بالإضافة إلى عوامل أخرى منها تشجيع الملوك وهجرة الأندلسيين، وقد جعل هذا الإنتاج الغزير أبو القاسم سعد الله يقول:" **يعتبر إنتاج القرن التاسع... من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي، ومن أخصب عهودها بأسماء المثقفين (أو العلماء) والمؤلفات، وفي إحصاء سريع أجريته لأسماء العلماء المنتجين خلال القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر وجدت أن عددهم في القرن التاسع يفوق أعدادهم في القرون الباقية متفرقة... وكثير من إنتاج القرن التاسع ظل... موضع عناية علماء القرون اللاحقة...**".

هذا وقد أثمرت جهود الحكام والعلماء والطلبة معا، باشتهار عدد كبير من العلماء فاقت شهرتهم حدود الوطن، وظهرت بيوتات العلم كانت تحتضن العلماء والطلبة، وترعى العلوم والفنون فاشتهرت أسر بإنجابها أشهر العلماء والفقهاء والقضاة كأسرة المقري المرازقة والعقباني وابن زاغو، وابن زكري.

وما قيل عن تلمسان الزيانية يمكن أن يقال عن قسنطينة تحت الحكم الحفصي ، فالأسر ذات العلم والثقافة التي عرفت خلال العهد العثماني كأسرة الفقون وعبد المؤمن وابن باديس والقنفذ لها جذور وامتدادات في العصر الذي سبق مجيئ العثمانيين. فالأتراك العثمانيون ثبتوا ما وجدوا الأهالي عليه في مجال الثقافة والعلوم.

الحياة العلمية في بجاية الحفصية:

تشير المصادر إلى أن بجاية خلال العهد الحفصي كانت حاضرة من حواضر العلم والثقافة ومركز إشعاع حضاري وثقافي، حيث كانت تتوفر على مدارس ومعاهد يشهد لها بالمستوى الراقي، وبالصيت العالي المرموق، حيث كانت السلطة تعتني بالكتاتيب اعتبارها المركز الأول الذي يتلقى فيه الصبيان المبادئ الأولى في القراءة والكتابة، فكانت تنفق عليها بأموال الأوقاف أو من بيت المال، وكانت تدفع للمعلمين وكان غير كاف فكان هؤلاء مضطرين لقبول الهدايا التي كان الأولياء يقدموها لهم أما في المناطق البعيدة عن مراقبة السلطة فكان السكان هم من يتولى رعاية شؤون الكتاتيب.

وبعد أن يتم الطفل تعليمه في الكتاتيب ينتقل إلى المسجد أو الزاوية لمزاولة مرحلة أخرى من التعليم.

ومن أشهر المراكز العلمية في بجاية الجامع الأعظم الذي يقع داخل القصبة، وزاوية سيدي التواتي التي ظلت تمارس نشاطها التعليمي طوال فترة الوجود العثماني، وكان يتخرج منها الأئمة والقضاة والمفتيين.

ويكفي للتدليل على المستوى الثقافي الرفيع الذي كانت تعرفه بجاية أن العلامة ابن خلدون تتلمذ في معاهدها ودرس فيها، وهذا العالم الرياضي والفلكي الإيطالي ليوناردو فيسبوتشي تلقى علومه على يد مشايخ بجاية وذهب إلى أوروبا لينشر العلوم والمعارف التي نهل منها في بجاية، هذا وقد أحصى الفقيه أبو العباس الغبريني في كتابه "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة في بجاية" أكثر من مئة عالم وفقيه.

وذكر مخطوط لصاحبه أبو علي إبراهيم المريني أن العلماء والفقهاء كانوا في مقدمة المقاومين لما تعرضت بجاية للغزو الإسباني سنة 1510 وكانوا يحرضون الناس على القتال، ومن أبرز العلماء والفقهاء الذين أنجبتهم بجاية خلال القرن الخامس عشر الميلادي نذكر الشيخ الولي سيدي يحي مؤسس زاوية بقرية تاموقرة بنواحي بجاية، والشيخ الولي سيدي محمد التواتي الذي كان صديقا للشيخ العالم الرباني عبد الرحمان الثعالبي صاحب جزائر بين مزغنة حيث كانت بينهما مراسلات.

وشهد المؤرخ أبو علي المريني أن بجاية قبل تخريبها على يد الإسبان كانت عامرة بالمدارس والمساجد والمعاهد يأتيها الطلاب والأساتذة من كل جهات القطر ومن البلاد العربية والأندلس. ولا شك أن تشجيع الأمراء كان وراء الازدهار العلمي الذي شهدته المدينة، وإذا كانت المدينة قد اشتهرت بمعاهدها ومساجدها ومدارسها فإن الأرياف اشتهرت بزواياها التي كانت منارات للعلم والمعرفة في المناطق الجبلية حيث كانت

هذه الزوايا تحتضن التلاميذ وتلقنهم المبادئ الأساسية ثم ينتقلون بعد ذلك لمزاولة دراساتهم في مدينة بجاية.

السياسة الثقافية في العهد العثماني:

لا يمكن التطرق للحياة الثقافية والعلمية في الجزائر دون أن نعرج على الحالة السياسية التي كانت سائدة حينئذ، من خلال محاولة رسم صورة عامة لأن الازدهار الثقافي والعلمي مرتبط إلى حد كبير بدرجة الاستقرار السياسي الذي بدوره يساعد على الاستقرار الاجتماعي والاقتصادي ومن ثمة يأتي دور الإبداع والابتكار وإطلاق العنان للعقل لكي يفكر بكل حرية في الأطر المسموح بها في العصر دينيا واجتماعيا وعرفيا.

إجمالا كانت الجزائر تعرف بالمغرب الأوسط تعاني من حالة عدم الاستقرار، حيث كثرة الفتن والحروب والانقسام، فكان يتقاسمها الحفصيون من جهة الشرق والزيانيين من جهة الغرب، وباقي المناطق كانت تنتشر بها إمارات محلية كإمارة كوكو بجبال زواوة (جرجرة) وإمارة قلعة بني عباس في جبال بيبان الحديد، وإمارة بني جلاب في تقرت والوادي وورقلة، ومشيخة الثعالبة في مدينة الجزائر بني مزغنة، بالإضافة إلى القبائل المتناثرة هنا وهناك، لا تدين لأية جهة منها قبائل الحنانشة والنمامشة والحراكتة في نواحي خنشلة وسوق أهراس وتبسة، وقبائل أخرى مستقلة متحصنة في الجبال.

ولم تكن الحدود واضحة وثابتة بل كانت متغيرة تخضع للظروف السياسية والطبيعية. وقد ساعد هذا الضعف والانقسام الذي كانت تعاني منه السلطتين الحفصية في تونس والمرينية في المغرب، ساعد على تزايد الأطماع الأوروبية المسيحية في المنطقة لا سيما إسبانيا والبرتغال، حيث رفعت إسبانيا شعار حروب الاسترداد la reconquista وتمكنت من إسقاط دولة الأندلس بسبب انقسامها وصراع حكامها على الحكم، وأمام هذا الجو تعرضت السواحل الجزائرية للاحتلال الإسباني المباشر وغير المباشر مع مطلع القرن السادس عشر (وهران، المرسى الكبير، بجاية، جيجل، الجزائر، دلس، تنس، شرشال، تلمسان وغيرها من المدن).

ولم يقض على الوجود الإسباني في الجزائر سوى ظهور الإخوة بربروس (كانوا أربع إخوة وهم عروج وخير الدين وإلياس وإسحاق) على مسرح الأحداث في الحوض الغربي للمتوسط، وذلك من خلال قيام سكان بجاية بالاستنجاد بهم لتحرير مدينتهم، ثم تبعهم سكان مدينة الجزائر ثم تلمسان، مما سمح للإخوة بربروس بالتدخل لتتسارع الأحداث ويتم إلحاق الجزائر بالباب العالي (السلطنة العثمانية)، وكانت الدولة العثمانية في هذا الوقت تتزايد عظمة وقوة فتصدت للأطماع الأوروبية في البلاد المغاربية، فأصبحت الجزائر منذ سنة 1520 ولاية من ولايات الدولة العثمانية.

وكانت سياسة خير الدين بربروس باعتباره أول حاكم للجزائر، تتمثل في توحيد القطر وتحصينه والدفاع عنه من الأخطار الخارجية المحدقة به.حتى كللت الجهود بإخضاع مناطق كثيرة للحكم، وترسيم الحدود مع تونس والمغرب، وأصبح للبلاد جيش وعملة وعلم، ونظام وعاصمة. واستطاع خير الدين

بحنكته وذكائه ان يجد له حلفاء أقوياء يقفون إلى جانبه من كبار الأسر والقبائل والشيوخ الدينيين من أصحاب الطرق الصوفية والزوايا الذين لعبوا الأدوار الأساسية في تكريس الحكم العثماني في الجزائر، كما كان لهم الدور الفعال في الجهاد.

وهكذا تمكن الأتراك العثمانيون من القضاء على الفوضى السياسية التي كانت تعيشها الجزائر، من خلال القضاء على الحكمين الحفصي والزياني، وإخضاع الإمارات المحلية الأخرى التي أصبحت تابعة للدولة، تارة بالسيف، وتارة أخرى بالليونة مع المحافظة على خصوصيات كل منطقة، واستند الحكم العثماني على التعاون مع العلماء والزعماء الدينيين، ورؤساء القبائل والأعراش وكذا الأسر الكبيرة ذات النفوذ كما سبقت الإشارة إليه.

وقد تبوأت مدينة الجزائر مكانة لائقة أثناء الوجود العثماني، حيث أصبح لها شأن عظيم بعد أن كانت غير معروفة، كما تعزز النشاط الثقافي في هذه المدينة بعد نزوح المهاجرين الأندلسيين إليها عقب المحنة التي تعرضوا لها إثر سقوط الأندلس فأصبحت هذه المدينة قبلة للطلاب والعلماء من داخل القطر وخارجه.

ولا بد من الإشارة إلى السياسة الثقافية للسلطة حيث تشير جل المصادر إلى الطابع العسكري للوجود العثماني، وأن بناء المؤسسات التعليمية والتثقيفية والسهر عليها والحرص على تقريب الشعراء والأدباء كما جرت عادة الملوك والأمراء، لم تكن من اهتمامات السلطة العثمانية حينئذ، وفي الواقع لم تنفرد الجزائر بهذه السياسة بل كانت تشمل كل الأقطار العربية والإسلامية، التي كانت منضوية تحت لوائها، ولكن ذلك لم يمنع الحكام بشوات وبايات، وكبار رجال الحكم والسياسة من العناية بالحركة العلمية والثقافية ورعايتها كسلوك فردي من خلال حرصهم على تشييد المساجد والمدارس والزوايا والمكتبات، والإنفاق عليها وتحبيس الأموال عليها، وكانت سياسة التقرب من فئة العلماء سمة بارزة ميزت الحكام سواء في المدن أو في الأرياف، علاوة على احترام رجال الدين المرابطين، وتشجيع حركة التصوف وتشييد الزوايا والاعتناء بها.

فالقول بأن السلطة العثمانية في الجزائر لم تهتم بالنواحي الحضارية العلمية قول يتنافى في الواقع مع الحقائق التاريخية، فلا نكاد نجد من العلماء من تحدث عن تقصير السلطة في هذا الجانب في تآليفهم. ونظرا لطابع الدولة العسكري فقد حمل الجزائريون على عاتقهم مسؤولية الاهتمام بالتعليم ودوره ونشره بغية المحافظة على الموروث الحضاري، وكذا الحرص على الارتباط الحضاري بالتراث العربي الإسلامي، متأثرين في ذلك بعاملين أساسيين: الأول الاتصال بالمناطق العربية والإسلامية الأخرى عن طريق الحج خاصة، والتجار وطلبة العلم عامة، والعامل الثاني يتمثل في نزوح الأندلسيين إلى الجزائر وما حملوه في جعبتهم من رصيد حضاري زاخر من مختلف ألوان العلوم والمعارف والفنون. كما أن الحياة الثقافية في الجزائر كانت نشيطة قبل العهد العثماني فرغم تعثرها لبعض الوقت تحت تأثير الحوادث السياسية والعسكرية التي مرت بها الإيالة خلال القرن السادس عشر على الخصوص، إلا أنها سرعان ما استعادت

نشاطها بزعامة العلماء والفقهاء وبتشجيع وتدعيم من السلطة بطبيعة الحال، فالسلطة لم تمنع أي نشاط علمي أو ثقافي في الواقع، بل كانت تشجع وتحفز قدر الإمكان، لأن الأتراك ميالون بطبعهم إلى الحرب والغزو لا إلى الأدب والشعر، وبالرغم من ذلك وجد من الحكام من كان يقرب العلماء إليه ويغدق عليهم بالعطايا والهدايا تشجيعا لهم وتحفيزا على الإبداع والابتكار.

مدلول الثقافة:

كانت الثقافة في الجزائر تحت الحكم العثماني ترتكز أساسا على الحركتين العلمية والأدبية، والمقصود بالحركة العلمية حسب محمد بن عبد الكريم محقق التحفة المرضية، هي العلوم النقلية التي تعني الإلمام بفهم القرآن الكريم وإدراك معانيه، وحفظ الحديث والسنة الشريفة، والتعمق في فهم الفقهيات وأصول الدين، وأما علوم المنطق ومنها الفلسفة فقد كان بعض الفقهاء يمنعون طلبتهم من الخوض فيها لأنها خطر على العقيدة في اعتقادهم.

وكانت العلوم الدينية أو الشرعية أو المنقولة هي العلوم السائدة والشائعة في هذا العصر، وكان الاعتماد على المنقول دون إعمال العقل السمة البارزة، مما جعل أغلب العلماء يعتمدون على التقليد الأعمى، والحفظ دون أن تكون لبعضهم مساهمة في تطوير الفكر، وقد نتج عن التوجه الديني للعلوم والفنون وكذا التقليد الأعمى والاعتماد على الحفظ تعطيل العقل وغياب الإبداع والخلق والابتكار في مجال العلوم التي لها علاقة بحياة الإنسان اليومية، فلم يتوجه العلماء نحو التفكير مثلا في تطوير وسائل الإنتاج وطرقه في مجال الفلاحة التي كانت بدائية تقليدية من حيث الطرق والمناهج والوسائل. كما ترتب عن ظاهرة الحفظ والتقليد جمود الإنتاج الفكري لا سيما في العلوم الشرعية ، حيث جعلت هذا الإنتاج مجرد تكرار ونقل رتيب لكتب القدامى.

ولا شك أن التفكير الضيق لبعض العلماء أمثال جلال الدين السيوطي قد كان له دور في التقليد الأعمى ورفض التجديد والابتكار، حيث عرف عنه أنه نهى عن تعلم المنطق وكان يذم أولئك الذي يقولون بجواز أخذ العلوم عن اليهود والنصارى، كما نهى عن تقليد هؤلاء في علومهم، وقد اختلف معه العالم الجزائري عبد الكريم المغيلي الذي كان من أنصار علم المنطق.

وعلى الرغم من وجود علماء ثاروا على الواقع المتردي كابن عمار و الشيخ الفقون في كتابه (منشور الهداية)، والشيخ محمد بن العنابي في كتابه (السعي المحمود في نظام الجنود) الذي لم يكتف بالنقد، بل دعا إلى العودة إلى العمل بالاجتهاد، وكذا دعا إلى الاستفادة من الحضارة الغربية، والأخذ بأسبابها. كما دعا كذلك إلى التداول على السلطة والعدالة في توزيع الثروة واختيار الأكفاء في تسيير شؤون الدولة، وهي أمور كان تطرق الفقهاء إليها شبه محرم على حد تعبير أبو القاسم سعد الله. مما يجعلنا نقول أن ابن العنابي كان مصلحا من الطراز الأول.

وكانت الحركة الثقافية مقتصرة على المدن والقرى وتكاد تنعدم في البوادي والأرياف، وحدث انحراف أهل التصوف فحولوه إلى الدجل والشعوذة والسحر.

وعن الحركة العلمية في قسنطينة يقولPaul Gaffarel بول غافارال" كانت قسنطينة على عهد الأتراك عاصمة دينية، وكانت العلماء تتمتع فيها السيادة المطلقة والنفوذ التام، كما أنها كانت غاصة بعدد كبير من الطلبة يغترفون من 25 مدرسة للعلوم الدنيوية والأخروية، ثم يتفرقون في أنحاء القطر لينشروا ما اغترفوه من العلوم. إن قسنطينة كانت حقا مبعث نور الجزائر، كما كانت تشرف العلماء وتقدرهم حق قدرهم ."[1]

ويقول العالم المغربي ابن زاكور الفاسي عن علماء مدينة الجزائر الذين أخذ عنهم وأجازوه سنة 1683م: " غرر أعلام تنجلي بهم الأظلام وشموس أئمة، تنفرج بهم كل غمة، وتفتخر بهم احبار هذه الأمة، من رجال كالجبال، وأحبار كالأقمار، طلعوا في بروج سعودها بدورا ألبسوها..."[2]

ومن أهم الفنون والكتب التي كانت تدرس في هذا العصر، جمع الجوامع للإمام السبكي، وشرح المحلي، وشرح مختصر ابن الحاجب، وتلخيص المفتاح في علم البيان، والجمل للخونجي في علم المنطق، والسلم المورنق في علم المنطق لعبد الرحمان الأخضري، وألفية العراقي، في مصطلح الحديث، وكتاب الشفاء للقاضي عياض، والبردة بشروحها للبوصيري، و السينية وعقائد السنوسي، وكتب أخرى في فن التصوف والنحو والصرف والتفسير، والعروض والحساب، والفرائض وهلم جرا.

ويقول عبد الرحمان الجامعي عن الحركة العلمية في مدينة الجزائر" فهي والحمد لله غلى الآن الجوهر الفرد في الأدب، وعلم العقل والنقل، وتنبت العلماء والصالحين كما تنبت الأرض البقل...وهذه المدينة لا تخلو من قراء نجباء، وعلماء أدباء، وأعلام خطباء، مساجدهم بالتدريس عامرة، ومكاتب أطفالهم بالقراءة مشحونة مشهورة..."[3]

ويرجع الشيخ محمد بن عبد الكريم غلبة العلوم الدينية عن العلوم الأدبية في العصر التركي إلى سببين رئيسيين هما:

الأول أن الدولة كانت عجمية اللسان لا تفقه شيئا مما يكتبه الشعراء وما يقوله الخطباء، فكانت تهتم فقط برجال الحرب الذين يحسنون ضرب والسيف، وكانت الجزائر في حالة حرب مع الأوروبيين فلم يكن للحكام وقت لسماع الخطب والشعر.

والسبب الثاني يتمثل في أن التوجه التعليمي كان دينيا أكثر منه أدبيا، ولا سيما في الزوايا التي كانت مرتعا للعلوم الدينية. كما أن القرآن وفهم معانيه ودراسة الحديث والسيرة كانت المصدر الأساسي لثقافة هذا العصر، حيث تميز بالافتخار بالانتماء إلى الحضارة العربية الإسلامية.

مراكز الثقافة:

---

[1] Paul Gaffarel: l'Algérie, p123.

[2] محمد بن قاسم بن زاكور: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان، الجزائر، مطبعة فونتانا، 1902، ص 3- 4.

[3] نور الدين عبد القادر: صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، قسنطينة، مطبعة البعث، 1905، ص 81- 82.

كانت الثقافة خلال العهد العثماني موزعة على سبعة مراكز كل منها يقوم بوظيفته على أحسن وجه، حسب ما تتطلبه ظروف العصر وإقليم القطر وعوائد السكان، هي:

الكتاتيب وهي أول مؤسسة يتلقى فيها الطفل الحروف الهجائية بواسطة اللوح المصلصل والقلم القصبي، وعادة ما تكون هذه الكتاتيب عند الأضرحة والمساجد. والكتاتيب التي تُحفظ القرآن لا تخلط مع تحفيظه شيئا من العموم الأخر ، وبلغ عددها في الجزائر نحو 10 آلاف كتاب يضم الواحد منها ما بين 30- 20 تلميذاً، وهي منتشرة انتشارا واسعاً في الجزائر، إذ لا يخلو منها حي في المدن ولا قرية في الأرياف.

الزوايا وكانت تقوم هي الأخرى بالتعليم والتثقيف وكانت مقسمة إلى قسمين القسم الأول ويقوم بوظيفة تحفيظ القرآن ويقوم بهذه المهمة في الغالب الغرباء الذين سبق لهم أن تعلموا الحروف وحفظوا جزء من القرآن العظيم، وأما القسم الثاني فيقوم بتدريس بعض فنون الوقت، كالفقهيات والعقائد، وقواعد النحو والصرف، والبلاغة والمنطق، وبعض المبادئ في علم الفلك وغيرها، ولا يقوم بهذا الدور سوى الحافظون للقرآن الكريم.

المساجد وكانت تقوم بتدريس مختلف فنون وعلوم العصر، في خارج أوقات صلاة، ويكثر هذا النوع في المدن والقرى حيث تقل الزوايا.

المدارس لم تكن منتشرة سوى في المدن والحواضر الكبرى كالجزائر وقسنطينة وتلمسان التي بها درس ودرس العلامة ابن خلدون، وبونة وملیانة والبليدة والقليعة والمدية وبجاية.

الدكاكين التجارية التي كانت للبيع والشراء في النهار، وفي الليل تتحول إلى نوادي علمية وثقافية يلتقي فيها العلماء والطلبة. فهي مكملة لعمل المساجد والزوايا.

الأندية المنزلية وكانت تقليد خلال العهد العثماني، حيث كانت تقام الدروس والمحاضرات في بيوت الوجهاء والأعيان ورجال السياسة والحكم، الذين كانوا مهتمون بالعلم، فكان الباشا والباي والآغا والقاضي يجتمع في بيوتهم العلماء والمشايخ بعد صلاة العشاء، حيث يدرسون كتاب ويشرحونه يوميا وخلال شهر رمضان تتضاعف الدروس والمحاضرات بعد صلاة التراويح.[1]

كما كان العلماء بدورهم يفتحون بيوتهم للطلبة بعد صلاة العشاء لإلقاء الدروس والمناقشات العلمية وقد استمر هذا التقليد حسب محمد بن عبد الكريم إلى غاية الاحتلال الفرنسي. و ذكر الرحالة والعالم عبد الرزاق بن حمادوش في رحلته لسان المقال أن شيخه محمد بن ميمون الذي كان يشغل حينها منصب قاضي المواريث في وقته كان يتقرب إلى السلطة الحاكمة وكان يجعل داره منتدى يجتمع فيه العلماء والأدباء.[2]

ويتمثل المركز السابع في المكتبات العامة والخاصة، وكانت تضم المخطوطات وكتب مختلف فنون ذلك العصر، يرتادها الأساتذة والطلبة من مختلف جهات القطر، ولا سيما المكتبات العامة التابعة

[1] أبو القاسم عد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ص 170.

للمساجد والمدارس والزوايا، وكان العلماء وأصحاب النفوذ من رجال السلطة وبعض الأسر العريقة يسهرون على اقتناء الكتب والمخطوطات ووضعها في المكتبات الخاصة والعامة ليستفاد منها، وبهذا الصدد قال الكاتب الفرنسي بول غافارال Paul Gaffarel " وكان أهل قسنطية مولعين باقتناء الكتب والبحث عن نفائس المخطوطات أنى وجدت..وقد وجدت فرنسا عند دخولها مدينة قسنطينة 17 مكتبة خاصة تحتوي على 14000 من المجلدات"[1]

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه المكتبات كانت موجودة قبل العهد العثماني، فحافظ عليها السكان ولكنها تدعمت برصيد هائل من الكتب خلال العهد العثماني، وكانت المكتبات تتزود بالكتب والمخطوطات النفيسة عن طريق النسخ، وعن طريق الشراء وجلبها من الخارج من تركيا وبلاد الشام والحجاز ومصر والعراق وتونس والأندلس وغيرها، وذلك عن طريق الطلبة والتجار وبعض الشخصيات العثمانية المحبة للعلم والتي كانت تجلبها معها من عاصمة الخلافة العثمانية (اسطنبول).

المناهج والمقررات:

وفيما يتعلق بطريقة التدريس فقد كانت تختلف باختلاف المستويات، ففي التعليم الابتدائي كانت بسيطة جدا بساطة التعليم نفسه، الذي كان يقتصر على المبادئ الأولية في القراءة والكتابة الحفظ والحساب، ودوام المدرسة يتم يوميا صباحا ومساءً، وكان التعليم يعتمد على ملكة الحفظ وقوة الحافظة، وكذلك على شحذ الحس السمعي وحذق صناعة الخط والزخرف، وتكوين التلميذ على الامتثال لمن هو أعلى مرتبة وسنا منه، ويبقى الطفل في هذه المرحلة (الابتدائية) مدة ثلاث أو أربع سنوات وكان عدد الصبية يتراوح بين الخمسة عشر والعشرين في الصف. ومن كان يرغب في إكمال الدراسة يبقى لسنوات في الكتاب لحفظ القرآن أو ينتقل إلى المدرسة حيث يدرس العلوم النقلية والعقلية على يد علماء ومفتيين وقضاة. هذا في المدينة أما في الريف فقد كان التلاميذ يزاولون دراساتهم في الزاوية.

أما برامج التعليم الثانوي فكانت تخضع لإرادة المدرس، فهو الذي يضع البرامج الدراسية ويحدد أوقات التدريس وفقا لأوقات فراغه، وتتميز دروس المرحلة الثانوية والعالية بالشرح والتفصيل والإملاء، ويمكن تقسيمها إلى نوعين من الدروس:

-علوم نقلية: التفسير، علوم الحديث، والفقه وأصوله.

-علوم عقلية: وتضم القواعد والنحو والصرف، والبلاغة، والمنطق، وعلم التوحيد، والفلك والطب والحساب والتاريخ.

---

[1] Paul Gaffarel: l'Algérie, imprimeur de l'Institut, Paris, 1883, p123.

نقلا عن محمد بن ميمون الجزائري: **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط2، ش...، الجزائر، 1981، ص 61.

أما أهداف التعليم، فهي بسيطة لا تخرج عن الأهداف العامة للتربية الإسلامية ويمكن إجمالها في فيما يلي:

-نشر التعليم بين الناس على نطاق واسع لمعرفة أمور دينهم.

- إعداد رجال يتولون أمور الإفتاء والقضاء والإمامة والتدريس والكتابة.

-طلب العلم من أجل العلم باعتباره فريضة.

-حفظ علوم الدين من الضياع والنسيان وإعداد الفرد إعدادا جيدا.

ومن أهم المقررات التي كان الطلبة يتحصلون فيها على الإجازات (الشهادات)، نذكر في الفقه: وأصوله متن وشروح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومتن وشروح وحواشي مختصر خليل ومتن ابن الحاجب وابن عاشر، ورسالة السنوسي بشرح البيجوري، وفي التفسير والقراءات: تفسير ابن عطية وابن الجوزي والثعالبي، والشاطبية في القراءات، وفي الحديث ومصطلحه: موطأ مالك وصحيحه والبخاري ومسلم، ومتن البقونية وتذكرة القرطبي، وفي التصوف والتوحيد: مصنفات ابن عطاء والقشيري ومتن الجزرية وإحياء علوم الدين للغزالي، وفي علم الكلام:[1] المقاصد وشرحها للسعد والعقائد النفيسة والإبراهيمية للسنوسي، وفي علوم اللغة وقواعدها: متن الكافي في العروض والجوهر المكنون لعبد الرحمان الأخضري، والأجرومية والمغني وقطر الندى لابن هشام وألفية مالك بشرح ابن عقيل والماكودي والعشموني، وفي الحساب والفلك والمنطق: "الدرة البيضاء" و"السلم المرونق في علم المنطق" لعبد الرحمان الأخضري، ومتن السنوسي ومتن إساغوجي كذلك..

واشتهر من المساجد والمعاهد والمدارس والزوايا الجامع الكبير الذي يعود تأسيسه إلى العهد المرابطي، والجامع الجديد الذي شيده خير الدين بربروس، جامع كتشاوة الذي بني في العهد العثماني الأول، وجامع علي بتشين الذي كان من كبار رياس البحر وبناه من ماله الخاص، وجامع سوق الجمعة والقشاشين وزاوية الأندلس ومسجد وزاوية سيدي عبد الرحمان الثعالبي بمدينة الجزائر، وجامع سيدي الكتاني وسيدي الأخضر بقسنطينة، والجامع الأعظم بتلمسان، وزاوية سيدي التواتي ببجاية، والمدرسة المحمدية بمعسكر، هذا وكانت منطقة القبائل تعج بالزوايا التي بلغ عددها حوالي 40 زاوية أشهرها زاوية سيدي محمد بن عبد الرحمان (بوقبرين) يقرية آيت اسماعيل بجرجرة، وزاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي بإيلولة (نواحي تيزي وزو)، وزاوية سيدي بن علي الشريف بشلاطة قرب أقبو، وزاوية سيدي يحي العيدلي في قرية تاموقرة وسيدي منصور والشيخ أعراب وبن دريس بنواحي بجاية، وزاوية الهامل جنوب بوسعادة وطولقة وعين ماضي وتماسين وسيدي خالد وسيدي عقبة وغيرها من الزوايا في مختلف المناطق.

[1] يعرف قول ابن خلدون علم الكلام في مقدّمته" :هو علمٌ يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانيّة، بالأدلّة العقليّة، والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنّة."

وعن التعليم وانتشاره يمكننا الاستشهاد بما اعترف به الفرنسيون وما جاء في تقاريرهم عشية الاحتلال فالنقيب دوماس Capitaine Daumas le كتب يقول:" عند احتلال الجزائر كان التعليم منتشرا أكثر مما يتصوره الإنسان عموما، فاتصالاتنا بالأهالي في الأقاليم الثلاثة أظهرت أن نصف السكان من الذكور يعرفون القراءة و الكتابة" ، كما ذكرت الكاتبة الفرنسية إفون توران Yvonne Turin في كتابها مجابهات ثقافية " أنه إن لم يكن كل الأطفال قد تعلموا القراءة و الكتابة فإنهم جميعا قد مروا بالمدرسة الابتدائية" الكُتّاب" وكانوا يستطيعون قراءة القرآن في صلواتهم"[1].

علاقة العلماء بالبشوات والبايات:

كان العلماء يحظون باحترام السكان وتقديرهم، وكانوا محل ثقة السكان أكثر من الحكام، وخاصة أولئك الذين كانوا يشغلون المناصب الحكومية كالقضاء والإفتاء والإمامة والتدريس والكتابة، ومن هذا المنطلق كان الحكام يقدرونهم كذلك ويخشونهم أحيانا، فكانوا يتقربون منهم ويمنحونهم الهدايا والأموال، كما كان العلماء من جهتهم يحرصون أيضا على التقرب من الحكام طمعا في المنصب أو المال، فكانت العلاقة إذن مصلحة متبادلة. كان كل طرف يحرص على إدامتها واستمرارها.

وكانت علاقة بعض العلماء تقوم على الود وتبادل المنفعة فالحكام في حاجة إلى العلماء والمرابطين في الحصول على تأييدهم والمساعدة في فرض سلطتهم، وفي الوقت ذاته كان العلماء في حاجة إلى عطف الحكام عليهم وطمعا في المال والمنصب والجاه، حيث دلت الأحداث على أن العلماء الذين لم يمتهنوا التوظيف عاشوا حياة أكثر صعوبة مقارنة بحياة اليسر التي كان يحياها العلماء المقربون من السلطة.

وكانت العلاقة تقوم كذلك على المشورة والتوجيه والنصح الذكي، فبعض الحكام لا يقبلون النصح من العلماء فكان على هؤلاء توخي الحذر والحيطة والتحلي بالجرأة فكانوا يلفون النصيحة في ثوب جميل لكي لا يشعر الحاكم أن الناصح يتدخل في شؤونه ويتجاوز حدوده، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الشاعر ابن أقوجيل حين نظم قصيدة يحرض فيها الباشا حسين خوجة الشريف(1705-1707) على تحرير وهران من الإسبان، فبعد حديثه عن واجب الجهاد وفضله ومدح الباشا وتشجيعه والرفع من همته، انتقل للحديث عن واقع العلماء ودعاه في أسلوب ذكي حكيم إلى الالتفات إليهم وإصلاح حالهم المادي.[2]

وقد نجح هذا الشاعر فعلا في إيصال صوت العلماء من خلال رسم صورة صادقة وواقعية لما كانوا يعانونه من تهميش وحرمان من أموال الزكاة وغيرها من الهدايا والعطايا، كما أشار إلى أن هناك من ينفق الأموال بسخاء على أمور تساهم في فساد الأخلاق كشرب الخمر والقهوة والدخان وغيرها، كما دعاه إلى الحكم بالعدل.

---

[1] يحي بوعزيز: "أوضاع المؤسسات الدينية بالجزائر خلال القرنين 19 و 20 م" **الثقافة**، عدد 63 ، 1981ص 2 – 15

[2] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص.

وعلى أية حال فقد انقسم المتصوفة والمرابطين في موقفهم من السلطة العثمانية إلى ثلاثة أقسام: قسم عارضهم ورفضهم رفضا قاطعا ويمثله علماء تلمسان المؤيدين للحكام الزيانيين في بداية القرن السادس عشر، وقسم كان من المؤيدين والمتعاونين مثل المرابط أحمد بن يوسف الملياني الذي كان من أعداء الزيانيين،[1] والمرابط محمد بن شعاعة وهو من تلامذة الملياني، وكان ابن المغوفل مرابط الشلف من المؤيدين للعثمانيين، وأسرة الفكون في قسنطينة، وقسم وقف موقف الوسط بين معارض ومؤيد.

وقد اشتهر بعض العلماء بعلاقتهم الطيبة مع الحكام مثل العالم أحمد البوني الذي كان صديقا وفيا للباشا محمد بكداش، كما اشتهرت بعض الأسر العلمية بصداقتها للحكام كأسرتي الفكون وابن باديس في قسنطينة، حيث وقفت الأولى مع السلطة في أوقات المحن والشدائد كتأييدها في مواجهة ثورة ابن الصخري (1737)، وأثناء تمرد صالح باي (1791م)، وثورة ابن الأحرش في بايلك الشرق 1803م وثورة ابن الشريف الدرقاوي في الغرب 1804م. وتعد أسرة قدورة في مدينة الجزائر من الأسر التي كانت مؤيدة للحكم العثماني، وقد احتكرت هذه الأسرة الإفتاء والقضاء في هذه المدينة لمدة قرن من الزمان.

وكان البشوات يلجأون عادة إلى العلماء في أوقات المحن والشدائد وذلك للتوجه إلى السكان بالتأييد خاصة إذا تعلق الأمر بحرب خارجية كطرد الإسبان من السواحل كما حدث أثناء تحرير وهران الأول والثاني (1708- 1792م)، أو من أجل التصدي لغارات المسيحيين على مدن الجزائر الساحلية (مدينة الجزائر، جيجل وغيرها)، كما كانوا يستعينون بهم في حالة قيام تمرد أو عصيان او ثورة كما سبقت الإشارة إليه.

وكان العثمانيون يبادلون المرابطين المؤيدين لهم نفس الشعور، فكانوا يعفونهم من الضرائب ويخصونهم بالهدايا والهبات والعطايا والتقديس والاحترام والتقدير هم وأبناءهم وأحفادهم. وكانوا يخصصون عائدات جزء من الضرائب للإنفاق على زواياهم، فكانت العلاقات وطيدة بين الحكام العثمانيين والمرابطين والدراويش، وكان بعض المرابطين يَرْشُونَ الحكام من أجل السماح لهم بابتزاز أموال الناس الذين كانوا يعتقدون في قدراتهم وكراماتهم، وامتد الاعتقاد إلى رجال السلطة أنفسهم فمن كان يرغب في منصب يتوجه إلى مرابط يكتب له كتاب للحصول على هذا المنصب.

وكثيرا ما كان البشوات ينقمون على العلماء ويخشون من التفاف الناس حولهم، فكانوا لا يتورعون في إلحاق العقوبة بهم مثلما وقع للعالم أحمد قدورة مفتي مدينة الجزائر، الذي قام الباشا محمد بكداش بإعدامه، كما كان العلماء يتعرضون للإهانة والعزل والتغريم والمصادرة والسجن والنفي، مثلما حدث للشيخ المهدي بن صالح على يد الباشا حسين خوجة الشريف.

فالعلاقة بين العلماء والحكام لم تكن إذن مستقرة حيث كانت تتحكم فيها الظروف المختلفة وأمزجة الحكام، كما أن الوشاية والخصومة والتنافس غير النزيه والتحاسد بين العلماء ، كان يلعب دورا في انتقام السلطة منهم، وكان بعض العلماء يذهبون ضحية صراع الحكام فينتقم الحاكم المنتصر من

[1] المهدي البوعبدلي، ناصر الدين سعيدوني : الجزائر في التاريخ- العهد العثماني- ص 67.

أصدقاء خصمه المنهزم وهكذا هي صداقة الملوك لا يُؤتمن جانبها كما حذر كليلة صديقه دمنة في قصة ابن المقفع.

ولم تكن سياسة البايات اتجاه العلماء تختلف عن سياسة البشوات، لا سيما في كل من بايلك الشرق وبايلك الغرب، حيث كان البايات يحرصون على تقريب العلماء منهم للاستفادة من سمعتهم وكلمتهم المسموعة لدى الأهالي. وفي الوقت نفسه كان العلماء في بعض الأحيان ضحايا غضب البايات أو العسكر حيث أورد عبد الكريم الفكون نماذج عديدة عن اضطهاد العلماء والإساءة إليهم في قسنطينة وذكر على الخصوص ما تعرض له جده من أبيه وكذا جده من أمه محمد بن قاسم، ويحي ابن باديس.

مؤسسات الأوقاف:

ارتبط الوقف تاريخيا بظهور الإسلام، وتطور مع مرور الوقت وتعددت أغراضه وجوانبه، وهو يعد مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية ومعبر عن إرادة الخير في الإنسان المسلم وإحساسه العميق بالتضامن والتكافل مع المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه، ويقوم الوقف على مبدأ شرعي وعلى صيغة قضائية ملزمة، فالقاضي عادة هو من يتولى مهمة كتابة عقد الوقف بحضور الواقف والشهود ويسجل شروط الوقف ويحدد أغراضه مع تدوين التاريخ وتوقيع الواقف والقاضي والشهود.

وعادة ما يكون الوكيل أو الناظر هو المسؤول الذي يشرف على الأوقاف، وهو مطالب بتقديم تقرير عن حالة الوقف إلى السلطة التي كانت تراقب المؤسسات الوقفية، وتعاقب كل من يقصر أو تمتد يده للأموال الوقفية بالعزل، ونظرا لحساسية الوقف وخطورته في الوقت نفسه، كان الوكيل أو الناظر يتمتع بمكانة لائقة مما جعل هذا المنصب الحساس محل تنافس وأصبحت الرشوة طريق الكثيرين للوصول إلى هذا المنصب، الأمر الذي كان يلحق الضرر بالمؤسسات الوقفية، فأحيانا لم يكن يراعى الأخلاق الفاضلة والعفاف والتقى في تعيين الوكلاء والنظار مادام المنصب أصبح موضع مساومات ورشاوي. وقد أشار بعض العلماء إلى الحالة المزرية التي أصبحت عليها الأوقاف كالورتيلاني الذي ذكر في رحلته اعتداء الأتراك على الأوقاف في كل من بسكرة وقسنطينة. وأحمد ساسي البوني الذي اشتكى للداي محمد بكداش تردي الأوقاف في عنابة.

أملاك الأوقاف :

على الرغم من كونها أملاكا عامة إلا أنها كانت على أنواع متعددة :أولها :أوقاف فقراء مكة والمدينة والقائمين على خدمة الحرمين الشريفين، وهي كثيرة وغنية، وثانيها :أوقاف المساجد والجوامع، وثالثها أوقاف الزوايا والأضرحة ورابعها أوقاف الأندلس ثم أوقاف الأشراف وسادسها أوقاف الانكشارية وسابعها أوقاف الطرق العامة يضاف إليها أوقاف عيون الماء وأوقاف بيت المال.

وكان الوقف يستعمل في أغراض كثيرة منها العناية بالعلم والعلماء والطلبة والفقراء والعجزة والأرامل واليتامى وأبناء السبيل، وكانت أمواله توجه للعناية بالمساجد والمدارس والكتاتيب والزوايا وأضرحة الأولياء والصالحين، كما كانت توجه أموال الأوقاف بفقراء فئة معينة كفقراء الأندلس والأشراف

وفقراء مكة والمدينة، أو الطلبة الغرباء كالأتراك وقد تخصص الأوقاف لدراسة المذهب الحنفي والاعتناء بمؤسساته وأتباعه، وكانت تخصص كذلك للطرق العامة والإنارة والعيون والمسبلات العمومية وغيرها من سبل الخيرات.

وبهذا يكون الوقف قد لعب دورا فعالا في الحياة الدينية والعلمية الاجتماعية فقد كان مصدر عيش للزوايا والأضرحة والمساجد والمدارس، كما كان مصدر رزق للكثير من الموظفين والعلماء والمدرسين والطلبة وغيرهم من القائمين على مؤسساته كالقضاة والوكلاء والمفتيين والحزاب والمؤذنين والأئمة والمشايخ.

وكانت المؤسسات الوقفية من جهة أخرى في حاجة إلى العناية والسهر على حمايتها واستمرار عطائها من خلال استثمار أموالها والعمل على نمائها، فإن توقفت العناية بها وصيانتها زالت واندثرت. وكان الواقفون يمثلون كل فئات المجتمع دون اختلاف في الأجناس أو في الجنس ففيهم الذكر والأنثى، الأتراك والأندلسيين والحضر، المدنيون العسكريون، الحكام والإداريون، والتجار والحرفيون، وكانت لكل واحد منهم دوافع قد تكون طلب الجزاء وقد يكون الهدف من الوقف الشهرة والذكر في الحياة وفي المماة، وقد تكون نية الواقف مخافة أن تصادر ممتلكاته في حال انقراض نسله، أو بنية إبعاد الثروة عن بعض الورثة.

فقد أوقف الحاج محمد خوجة أحد كتاب قصر الباشا على معهد ومدرسة وزاوية، وبنى مصطفى بن مصطفى زاوية للطلبة وأوقف عليها الأموال، و نفس الشيء فعله مصطفى آغا الصبايحية، وبنى البيت المالجي ساري مصطفى بن الحاج محمد مدرسة لتعليم الأطفال وأوقف عليها من ماله الخاص.

وقد كان خير الدين بربروس من الحكام الأوائل الذين سنوا تقليد الوقف ثم حذا تتابعه عبد الله سفير حذوه حيث بنى الجامع المعروف باسمه في مدينة الجزائر وأوقف عليه الأموال، وكذلك فعل الحاج محمد بن محمود، ومحمد بن بكير ،ومحمد بكداش، والحاج حسين ميزو مورطو ومحمد بن عثمان باشا الذي جدد جامع السيدة، وخضر باشا الذي شيد جامع خضر باشا، وحسين داي الذي بنى جامع خاص به يؤدي به الصلوات.

ومن البايات نذكر حسان بوحنك الذي بنى الجامع الأخضر بقسنطينة وصالح باي وأحمد باي ومحمد الكبير. وأما من غير البشوات والبايات فقد اشتهرت كثير من الشخصيات الكبيرة من قواد العسكر والخوجات بقيامهم بوقف العديد من المؤسسات على المؤسسات الدينية والتعليمية نذكر منهم على سبيل المثال رضوان خوجة قايد الدار في قسنطينة.

وأثناء الاحتلال الفرنسي كانت مؤسسات الأوقاف تمتلك أموال طائلة أسالت لعاب الفرنسيين الذين قاموا بنهبها والاستيلاء عليها لهدفين أساسيين أولهما حاجتهم الماسة للأموال، وثانيهما تجفيف منابع المؤسسات التعليمية والدينية التي كانت تعتمد أساسا عليها في غياب سياسة تعليمية واضحة للسلطة

العثمانية، ومن أجل الاستيلاء على هذه الأموال أستصدرت عدة قوانين ومراسيم تنص على مصادرة ممتلكات الأوقاف.

وكان أول أمر صدر في 8 سبتمبر 1830 ثم تبعه أمرا ثانيا في 7 ديسمبر 1830 الذي يخول للحاكم العام حق التصرف في الأملاك الدينية بالتأجير أو بالكراء، وهذه الأوامر تم تأميم الممتلكات العامة التي أصبحت تحت تصرف المعمرين فيما بعد، حيث باعت لهم الإدارة الفرنسية من أملاك الأوقاف ما قيمته 4495839فرنك.

ولا نستغرب أقوال واعترافات الكتاب الفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين بأن العلم والثقافة كانا منتشرين في هذه البلاد، فإذا عرفنا أنه في كل تجمع سكاني كانت تتوفر المدارس القرآنية وخزائن الكتب التي كانت الأسر والعائلات تحتفظ بها وتفتح أبوابها للقراء، مما لا شك فيه أن التعليم والثقافة في المدن كانت أوسع وأكثر نشاطا فهذا الشاعر أحمد البوني ترك لنا مئة كتاب في الفقه والحديث والعقيدة والأدب والتاريخ والتراجم وغيرها منها "الدرة المكنونة في علماء بونة" و"فتح الباري في شرح صحيح البخاري".
وأحمد التلمساني 1018هـ/ 1614م وابن مريم التلمساني 1020هـ/ 1616م صاحب مؤلف "البستان في ذكر علماء وصلحاء تلمسان".

وذكر عبد الرحمان الجيلالي أنه كان بمدينة الجزائر وحدها ما يزيد عن 120 مسجد وجامع ومدرسة وضريح وزاوية وكُتّاب، وذكر أن منهم من رفع العدد إلى 166 قبل الاحتلال الفرنسي، يعتبر الجامع الأعظم من أهم المؤسسات التعليمية والتربوية والذي يعود تأسيسه إلى أواسط القرن 11م بناه يوسف بن تاشفين زعيم دولة المرابطين.

وأحمد المقري التلمساني (1041هـ/ 1632)، ، صاحب نفح الطيب الذي كان عالما شديد الحفظ متضلع في العلوم النقلية والعقلية، من أبرز ما كتب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وله نحو 28 مؤلفا في علوم شتى، نذكر منها أزهار الرياض في أخبار عياض، وحسن الثنى في العفو على من جنى وغيرها.
وسعيد بن براهيم قدورة 1066 هـ/ 1656م مفتي حضرة الجزائر تخرج على يديه كوكبة من علماء العصر.
والشيخ عبد الكريم بن الفكون (173هـ/ 1663م)، من علماء قسنطينة جمع بين علم الظاهر والباطن، من أشهر مؤلفاته منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، وهو من أسرة ذات علم ودين تولت الإفتاء والقضاء شرفت برئاسة ركب الحجيج في قسنطينة.
ومن أمثلة الحكام الأتراك (بشوات وبايات) الذي عرفوا بالاعتناء بالعلم وأهله، وتقربوا من العلماء وجعلوهم يقتربون منهم لينتفعوا بنصائحهم وتوجيهاتهم، ولكي يشجعوهم على الابتكار والتأليف نذكر:

خليل باشا (1660) قام بتشييد الجامع الجديد بساحة الشهداء حاليا والذي كان مقرا للإفتاء
وكمثال على سياسة تقرب الساسة والحكام من العلماء ما قام به يوسف باشا (1640-1642)(1634-1637)، (1647-1651)، مع العالم أبو مهدي عيسى الثعالبي (1080هـ/ 1669م) حيث استدعاه لحضرته وألحقه بخاصته، ورغم عزل هذا الباشا من منصبه إلا أن هذا العالم ظل صديقا له ورافقه في تنقلاته

في الإيالة حتى حالت أحداث بينهما وتوفي الباشا بسبب وباء الطاعون مع كثير من أصدقاء الثعالبي.[1] ومن مؤلفات الثعالبي كتاب "مقاليد الأسانيد"، و"كنز الرواة المجموع في دور المجاز ومواقيت المسموع".

هجرة العلماء خلال العهد العثماني:

وهي من حيث الحيز الجغرافي نوعان، داخلية وهي التي كان ينتقل فيها العالم أو طالب العلم من القرية التي نشأ وترعرع فيها وتلقى علومه الأولى في زواياها أو كتابها، إلى المدينة الأكبر لمزاولة دروسه في معاهدها ومساجدها ويتتلمذ على يد شيوخها وعلمائها.

وهجرة خارجية وهي تلك التي يقوم فيها العالم أو طالب العلم بالسفر خارج حدود وطنه.

وأما أنواعها من حيث الزمن فهي مؤقتة ودائمة، فالمؤقتة هي تلك التي يسافر فيها العالم أو طالب العلم خارج الوطن من اجل الاستزادة في العلم ومهما طالت مدة إقامته في البلد الذي يقصده أو قصرت فإنه بالنهاية بعود إلى أرض الوطن.

والهجرة الدائمة يقصد بها انتقال الفرد وحيدا أو مع أفراد أسرته أو عشيرته إلى بلد آخر ويستقر به نهائيا.

وقد اختلفت دوافع الهجرة خلال العهد العثماني في الجزائر، مع أنها تشترك مع دوافع الهجرة في الأقطار العربية والإسلامية، فمنها الهجرة الدينية والاقتصادية والعلمية والسياسية،

والذي يهمنا في هذا المقام الهجرة الدائمة والمؤقتة الداخلية والخارجية، وكان للهجرة الخارجية المؤقتة نتائج طيبة على البلد والمجتمع، إذ كان العلماء والطلاب يعودون إلى أرض الوطن بمعارف وعلوم جديدة، ومفاهيم وأفكار تختلف عن التي كانوا يملكونها قبل هجرتهم، فكان النفع يعود على المجتمع والدولة على حد سواء، ولا سيما على الجانب الديني حيث كانت الحياة الثقافية يغلب عليها الطابع الديني، فكانت الطرق الصوفية التي انتشرت في الجزائر خلال العهد العثماني نتيجة للهجرة الخارجية، حيث يرجع أصل جميع الطرق غما إلى المشرق أو المغرب ماعدا الطريقتان الرحمانية والتجانية فهما جزائريتان الأصل.

ومهما يكن من أمر فقد كانت للعلماء الجزائريين وجهتان لا ثالث لهما هما المشرق الذي كان يشمل الأراضي المقدسة، والشام والعراق وفليسطين واسطنبول ومصر وتونس، والوجهة الثانية كانت ناحية المغرب الأقصى.

ومن أبرز العلماء الذين انتقلوا إلى المغرب الأقصى واستقروا هناك نذكر محمد بن مرزوق الخطيب، أحمد الواعزازي، احمد بن شقرون الوجديجي، محمد بن عزوز الديلمي، محمد بن محمد العباس، ابن الوقاد، أحمد الونشريسي صاحب المعيار المعرب، وابنه عبد الواحد. محمد بن عبد الرحمان المغراوي، وكان هؤلاء قد قصدوا المغرب لوجود جامع القرويين بفاس وهو يعد حاضرة للعلم ومركز إشعاع حضاري يعد من أقدم الجامعات في العالم، ويعود سبب اختيار العلماء الجزائريين التوجه إلى

[1] عبد الرحمان الجيلالي: المرجع السابق، ص.170.

المغرب لقربه من الجزائر وتشجيع حكامه للحركة العلمية والأدبية باعتبارهم عربا لا عجم مثل الأتراك في الجزائر فكانوا يتذوقون ألوان الأدب وفنونه، كما فر بعض العلماء من واقع سياسي غير مرض بالنسبة لهم، خاصة علماء تلمسان الذين كانوا مؤيدين للزيانيين فتسبب مجيء الأتراك في هجرتهم خوفا من انتقامهم منهم بسبب موقفهم السياسي.

وعلى كل حال تقلد هؤلاء العلماء في المغرب المناصب العليا واشتهروا بعلمهم الغزير بعدما لم يكونوا معروفين في الجزائر، ومن العلماء الذين نالوا الشهرة الكبيرة في المغرب نذكر محمد بن عبد الكريم الجزائري، ومجمد بن أحمد القسنطيني المعروف بان الكماد، وقيل أن محمد بن عبد الكريم السالف الذكر قد نال حظوة لدى سلطان فأس للطافته وحب مجالسته ولعلمه الغزير وفن الأدب والتاريخ.

دوافع الهجرة:

لقد لعبت المنافسة غير الشريفة بين العلماء والفقهاء دورا في هجرة بعض العلماء الذي أبت أنفسهم الانحدار إلى هذا المستوى، مثل ابن الكماد الذي كان يحظى بمكانة مرموقة قي قسنطينة حيث شغل منصب الإفتاء والقضاء والتدريس، لكن كثرة المنافسة دفعته إلى الهجرة إلى المغرب الأقصى، حيث كان الحكام يحترمون من طرف الحكام أكثر من حكام الجزائر، وتوفي بالمغرب سنة 1705م.

ويعتبر سعيد المنداسي الذي سبقت الإشارة إليه في معارضته للحكام الأتراك، أحد أهم من هاجر إلى المغرب لدوافع سياسية حيث يمكن القول أنه اختار منفاه بنفسه. كما فضل كثير من العلماء الهجرة إلى البقاع المقدسة للاستقرار والعيش بجوار قبر النبي الكريم (ص) وكانت رغبتهم الموت بهذه البقاع والدفن فيها التي كانت أمنية كل عالم وفقيه، وكما هاجر بعضهم إلى الشام (فلسطين وسورية)، والعراق وبعضهم سافر إلى اسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية وحاضرة العالم الإسلامي.

وقد تميز العهد العثماني في ما يتعلق بهجرة العلماء إلى البلدان العربية والإسلامية بعدم تدخل السلطة سواء في تقييد هجرة وتنقل العلماء الجزائريين إلى الخارج، أو توافد علماء هذه الأقطار على الجزائر.

أقسام الهجرة وأنواعها:

الهجرة الدائمة والهجرة المؤقتة، الهجرة الدائمة هي تلك الهجرة التي لا يعود فيها صاحبها إلى أرض الوطن ويفضل الاستقرار والبقاء في البلد الذي قصده تحت تأثير ظروف ما، أما الهجرة المؤقتة فهي تلك التي يعود فيها صاحبها إلى أرض الوطن سواء طالت مدة إقامته هناك أو قصرت.

وكانت الهجرة لطلب العلم في الجزائر عادة وتقليد لدى العلماء والطلاب العلم، فقد كان افتقار الجزائر إلى معاهد وجامعات كبيرة كجامعة القرويين بفاس أو الزيتونة بتونس أو الأزهر بالقاهرة، كان له دور في دفع العلماء الجزائريين والطلبة لشد الرحال إلى البلدان التي تتواجد بها هذه المعاهد، ويكثر فيها المشايخ والعلماء بغية التتلمذ على أيديهم وطلبا للمزيد من العلوم والمعارف على تلك التي كانوا يتلقونها في

المعاهد والمساجد الجزائرية، وإذا كان البعض يعودون إلى وطنهم للتصدي للتدريس أو شغل مناصب في الدولة، فإن البعض الآخر كان يفضل البقاء خارج الديار والاستقرار بها.

وأما الهجرة الدينية فقد ارتبطت بفريضة الحج التي هي ركن من أركان الدين الإسلامي، وهي تلك التي يقصد بها صاحبها الحج إلى بيت الله الحرام، وهي واجب وفرض على كل مسلم تتوفر فيه الاستطاعة، وكان العلماء والمرابطون حريصين على أداء هذه الفريضة أكثر من غيرهم، رغم المشاق والصعاب التي كانت تميز السفر إلى الحج في هذا الوقت.

كما كانت الرحلة السياسية الدبلوماسية من بين أنواع الهجرات، وهي تلك السفارات التي عادة ما تكون بتكليف من الحكام الأتراك لبعض العلماء والفقهاء خاصة بالقيام بمهمات دبلوماسية لصالحهم كالتفاوض والتفاهم من أجل وضع حد لنزاع أو ترسيم الحدود.

والهجرة نوعان دائمة ومؤقتة، الهجرة الدائمة هي هجرة علماء الجزائر إلى الأقطار العربية الإسلامية الأخرى والاستقرار بها بصفة دائمة، مدفوعين بعدة أسباب سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وعلمية ومنها الأسباب العامة والخاصة.

أما الهجرة المؤقتة فهي تلك التي كان يهاجر فيها أصحابها إلى الأقطار الإسلامية من أجل أداء فريضة الحج أو لطلب العلم، فكان بعضهم يمكث بهذه الأقطار مدة من الزمن قد تطول أو تقصر، يجالس فيها العلماء بغية الاستزادة بمختلف ألوان الفنون وأنواع المعارف، وكان هؤلاء العلماء يعودون في النهاية إلى وطنهم الأصلي ليواصلوا نشر العلوم والمعارف التي تعلموها، أو نشر الطرق الصوفية وغيرها من النشاطات العلمية والفكرية والدينية.

عوامل الهجرة:

تنوعت العوامل التي كانت تدفع بالعلماء الجزائريين إلى الهجرة خارج الوطن مشرقا ومغربا منها العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية والعلمية،

فالعوامل السياسية فعلت فعلتها في هجرة العلماء الجزائريين على الخصوص من تلمسان الزيانية منذ مطلع القرن السادس عشر حيث شهدت البلاد مرحلة انتقالية لتأسيس الدولة الجزائرية العثمانية تبعتها حالة من عدم الاستقرار مما دفع العلماء إلى الهجرة إلى المغرب ويمثل هذا الاتجاه العالم الفذ أحمد الونشريسي صاحب المعيار المعرب، وابنه عبد الواحد الونشريسي اللذان ذاع صيتهما في فاس وأصبحا من كبار علمائها. وقد ذكر ابن مريم التلمساني في كتابه البستان كثير من علماء الجزائر الذين هاجوا إلى المغرب، كما ذكرهم لإبن عساكر صاحب دوحة الناشر، ومما كان يشجع على توجه العلماء الجزائريين إلى المغرب توفر الظروف الملائمة سياسيا واقتصاديا وعلميا حيث كان الحكام في هذا البلد يعملون على تشجيع الحركة العلمية. علاوة على القرب الجغرافي من تلمسان ونواحيها.

ومن أسباب هجرة بعض العلماء تورطهم في المشاكل السياسية كما حدث لعيسى الثعالبي مع يوسف باشا ويحي الشاوي وغيرهما ممكن اغضبوا الحكام

وقد سجل بعض العلماء في أسفارهم ملاحظاتهم ومشاهداتهم في المناطق التي مروا بها، أو التي أقاموا بها خلال سفرهم ويمكن أن نطلق عليهم صفة الرحالين، وتسمى تآليفهم في وصف رحلاتهم بالرحلات الحجازية، مثل رحلة أحمد بن قاسم البوني إلى الحجاز سماها الروضة الشهية في الرحلة الحجازية، و رحلة أحمد بن عمار التي سماها نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب. ورحلة عبد الرزاق بن حمادوش التي سماها لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والآل، و رحلة الورتلاني وسماها نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار

وأطلق أبو راس الناصري على رحلته اسم" فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي و نعمته". وألف الشاعر محمد بن ميمون الجزائري مجموعة من القصائد الشعرية سماها التحفة المرضية في الدولة البكداشية، الذي خصصها لمدح باي وهران محمد الكبير بعد تمكنه من تحرير مدينة وهران من الإسبان سنة 1708م، وهو أحد شيوخ عبد الرزاق بن حمادوش.

والهجرة أنواع: هجرة داخلية من الريف إلى المدينة، أو من المدينة إلى مدينة، أو من المدينة الصغيرة إلى الكبيرة، وذلك في سبيل طلب العلم، أو التدريس أو التوظيف.

الهجرة إلى الحج ومجاورة قبر النبي (ص)، كما كانت وجهة العلماء والطلاب الجزائريين إلى المغرب الأقصى، وكان المغرب يموج بالفتن والصراعات العنيفة، حيث كان في صراع خارجي مع الإسبان والبرتغال، ومع الجزائر والباب العالي، وكان الصراع بين الأسر الحاكمة من مرينيين ووطاسيين وسعديين، كل هذا لا بد أن يكون له تأثير على استقرارا العلماء، فضلا عن مشكلة المعارضة والتأييد التي كانت تتجلى في تقليد المبايعة. فالحكام كانوا يستمدون شرعيتهم من التقاليد الراسخة ومبايعة العلماء ورجال الدين وكذا شيوخ القبائل الكبيرة النافذة.

وكان علماء تلمسان والغرب الجزائري يفضلون الهجرة إلى المغرب لأنه كان خارج الحكم العثماني وكذلك بحكم قربه وتشجيع حكامه للحركة العلمية وكانوا يتذوقون الآداب وفنونها وبالتالي كانوا يحترمون العلماء ويقدرونهم.

ولعل الهدايا والعطايا التي كان حكام المغرب يمنحونها للعلماء والأدباء والشعراء كان لها دور في توجه العلماء الجزائريين إلى هذا البلد لعلهم يحصلون على نصيب لهم من هذه الهدايا والحظوة، وقد أشيع عن السلطان محمد بن الشريف العلوي أنه منح 25 رطلا من الذهب الخالص إلى الشاعر الجزائري سعيد المنداسي الذي كان معارضا للأتراك واشتهر بهجائهم، منحه هذا الذهب مكافأة له على مدحه.

ومن الدوافع التي شجعت العلماء الجزائريين إلى اختيار وجهتهم إلى المغرب تشجيع الملوك والسلاطين للحركة العلمية، وتوفر المراكز التعليمية والثقافية وكذا المكتبات وتردد العلماء والطلاب، كما لعب جامع القرويين في فاس الذي يعد من أقدم الجامعات في العالم لعب دورا فعالا في استقطاب العلماء.

وكان تورط بعض العلماء في الحوادث السياسية سببا في هجرتهم من الجزائر، مثلما وقع للعالم ابن الترجمان الذي كانت حياته مليئة بالأسفار والمغامرات، ومن النوادر التي عرفها في حياته أنه كان متواجدا في اسطنبول، لما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا، فنصح السلطان مصطفى بقراءة استغاثة العالم الرباني أبي مدين الغوث، وسيكون النصر حليفه، فطلب هذا السلطان من العالم البقاء والمشاركة في الجهاد وقراءة استغاثة أبي مدين بنفسه، فاضطر إلى الذهاب إلى المعركة ووقع في الأسر وبقي في موسكو حيث لم يتم افتداءه فتوفي هناك.